سلسلة
التراث

سي أمحد بن رحال

مستقبل الإسلام
وكتابات أخرى

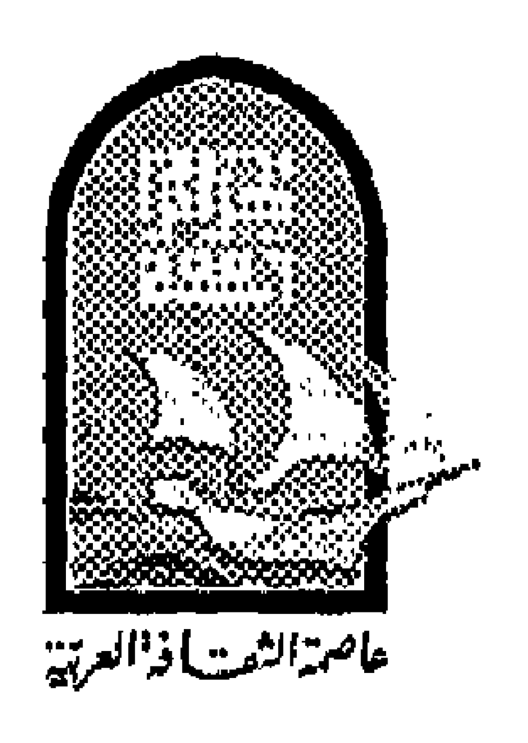
تصدير عبد العزيز بوتفليقة



منشورات ANEP

سي أمحمد بن رحال

مستقبل الإسلام وكتابات أخرى



منشورات ANEP

مجموعة التراث

في نفس المجموعة

- المرآة، حمدان خوجة
- الليل الاستعماري، فرحات عباس
- مذكرات مصالي الحاج، مصالي الحاج
- رسالة إلى الفرنسيين، الأمير عبد القادر
- رسالة إلى الرئيس ويلسن وكتابات أخرى ، الأمير خالد
- ليل الاستعمار، فرحات عباس
- نصوص مختارة، عبد الحميد بن باديس

منشورات — 2007
ISBN: 9947-21-304-8
Dépôt légal: 3036-2006

تصدير

إنه با حترام كبير، ولكن بعطف عميق أيضا أذكر سي محمد بن رحال، هذه الشخصية السياسية و الثقافية الكبيرة في الجزائر التي كانت تحت الإحتلال الإستعماري.

لقد بادرت الوكالة الوطنية للنشر والإشهار مبادرة طيبة بإعادة نشر بعض من نصوصه... و على الخصوص محاضرته الساطعة والحالمة التي ألقاها عام 1897 في مؤتمر المستشرقين في باريس «مستقبل الإسلام».

إن مسار إبن من ابناء أعيان مدينة ندرومة الذي تعلم في ثانوية الجزائر له شيئا إستثنائيا، ففي نهاية القرن التاسع عشر حيث يسيطر النظام الإستعماري بصورة كاملة نرى أن سي أمحمد بن رحال يتوفر على الشروط التي تجعله بديلا طيعا لذلك النظام.

من بين تفرده الثقافي الذي تم اجتثاثه أرادت فرنسا الإستعمارية استعماله من أجل تبرير سيطرتها وأعطاء مصداقية لسراب سياستها

الإندماجية بصورة فردية ، لكن العكس هو الذي حصل ففي عام 1884 استقال سي أمحمد بن رحال من منصبه كقائد وتحول إلى ناطق باسم الجزائر الرازحة تحت الاستعمار، وواصل في ظروف جديدة جذريا ما كان يقوم به حمدان خوجة والامير عبد القادر إلى غاية الحرب العالمية الاولى وإلى حين ظهور صورة الامير خالد كصدى للحاضر واستباق للمستقبل.

من المؤكد فالحوار الذي يحمله سي أمحمد بن رحال قد إستمر بينه وبين السلطة الاستعمارية وبعض المثقفين الفرنسيين مدة ثلاثين سنة، إلا أنه لم يكن له نفس هدف الحوار كحمدان خوجة.

ففي نهاية القرن 19 أين تم مسح كل آثار الدولة السابقة وتم سحق الإطار القبلي و الطرقي بواسطة القمع و إبادة كل الانتفاضات فاستعادة الاستقلال الجزائري لا مجال للتفكير فيه. وفي أحسن الظروف يمكن أن يكون حلما مخفيا.

إن القارئ اليوم قد يفاجئ بل قد يخذل لما يلاحظ أن محتوى المطالب التي قدمها سي أمحمد بن رحال، ذات مظاهر استرضائية بل تنم عن الخضوع وبدرجة أقل لما يعلم ان سي أمحمد بن رحال قد ارتجل فكرة الناطق باسم مجتمع لم ينهزم فحسب ، بل عندما خرج من صدمة الابادة البيولوجية التي لم تنتهي، و نهشته الدائرة الجهنمية للابادة الثقافية التي حولته إلى "بقايا أشخاص".

إن النضال ضد التفكك الشامل لما تبقى من المجتمع الجزائري تحت الضربات التي سببتها عملية الغرس المكثف للدولة الاستعمارية، والاستعمار الاستيطاني والتدمير الاجتماعي الناجم عن التطور الرأسمالي الاستعماري.

إن المعنى النبيل والصعب لنضال سي أمحمد بن رحال يكمن في الحفاظ على وحدة المجتمع الجزائري، التي تعرضت إلى الضعف والابادة الكاملة، وذلك بتقويته وعصرنته في هذه الظروف الصعبة وغير المناسبة، لقد أدرج أهم ما جاء في رسالة الامير عبد القادر، نداءه إلى عصرنة المجتمعات الاسلامية، حيث يحدد نطاقها وبدقة عالية ونقدية، لا يزال صداها إلى يومنا هذا كتحد: « من المؤكد: أننا لا نقبل مغمضي العيون لكل ما تقدمه لنا الحضارة، فالكثير من عروضها غير مرغوب فيه وبالتالي يهمل. فكل مجالات العلوم الدقيقة وجزء كبير من التنظيم الداخلي والسياسي، ونظام الاشغال العمومية، والتعليم وكل ما يتعلق بالتجارة والزراعة والصناعة بإمكاننا تطبيقه دون تغيير كبير، فلا شيئ في العقيدة يعارض هذا بل بالعكس تحث عليه أو تصفه لنا، لقد جاء في الحديث «لا بد للقوانين أن تتغير حسب الظروف، فالحاجة تجعل من المحظور مقبولا فإذا دخل المسلم إلى هذا الطريق لا تكون طويلة ولا صعبة."

إن هذه الحداثة كمحور للنهضة الحضارية تستنهض المجتمع الجزائري و بصورة تضامنية وليس كمحور انحلال بشكل فردي في الحضارة الفرنسية.

إن السيد أمحمد بن رحال لم يدخر وسعا لترقيتها لفترة ثلاثة عشريات وان استطاع ذلك في فترة ما، أن يكون محاوراً تعترف به السلطة الاستعمارية لأنه كان صانع أولى ملامح مجتمع مدني يمثل الحقل الخصب الذي نشأت فيه الحركة الوطنية هذا المقدم لزاوية السليمانية، مناصر تعليم البنات والذي أوفد بناته إلى المدرسة كما أنه أيضا يعتبر منظما مواضبا للنوادي الثقافية و أول العناوين الصحفية الجزائرية.

أما المحور الأساسي لكفاحه فهو دون نقاش التعليم الذي يعد بالنسبة للسيد محمد بن رحال الحلقة المركزية في سلسلة الجهود التي تشكل نهضة الحضارة الإسلامية.

عبد العزيز بوتفليقة

عرض أمام
لجنة مجلس الشيوخ
(18 جويلية 1891)

أيها السادة

ما دام اهتمامكم بعظمة فرنسا وبشهرتها الطيبة جعلكم تحولون النظر صوبنا !

ما دام اهتمامكم بتعميق المسألة الجزائرية ومعرفة الحقيقة تقدمون كل التوضيحات، ودعوة كل الإهتمامات، و سماع كل الشهادات !

ما دمتم تفضلتم بسماعنا إسمحوا لي أن أقول لكم الذي أفكرفيه.

لي سعادة مزدوجة بخصوص معرفة لغتكم، الأمر الذي يسمح لي أن أفهم مدى رفعة وصدق وكريم نواياكم، وحب عميق لإخوتي في الدين الأمر الذي يضمن لي ثقتهم واحترامهم.

المحصلة أنني أعرف و أستطيع و ألتزم بأن أقول !"أنني أفعل ذلك بكل تقدير لمكانتكم الرفيعة، وكل الإحترام الذي يتطلبه كرم ونبل المهام الموكلة إليكم، كل الإحترام الذي نكنه للخيرين" ولكن اسمحوا لي أن أقول لكم بكل استقلالية وبكل الصرامة الضرورية، سأكون مختصرا لمعرفتي كم هي أوقاتكم معدودة ووقتكم ثمين، إن السؤال الأكثر إلحاحا حسب رأيي والذي يسبق غيره هو تمثيل الأهالي لدى السلطات العمومية.

إن ممثلي الأهالي المنتخبين لوحدهم المعتمدين أصلا من طرف إخوانهم في الدين والذين بإمكانهم التكلم بأسمائهم تكون لهم السلطة الضرورورية لكي ينقلون

إليكم مطالبهم ولهم أن يفرضوا عليهم عند الحاجة التدابير التي ترونها مناسبة لتطبيقها.

بإمكانهم وبمفردهم أيضا معالجة الجوانب المختلفة للمسألة الجزائرية والبحث عن الحلول المواتية فإن لم تكن للجميع، فإنها لأغلبهم على الأقل.

إن الشيوخ والنواب أو ببساطة المندوبون فإن هؤلاء التابعين ضروريين لكم ولابد منهم، لا تقل أهميتهم للمجلس الأعلى وللمجالس الجهوية والبلدية ولكن هنا من الضروري أن تكون لهم نفس السلطات ونفس الصلاحيات، أسوة بزملائهم الفرنسيين، وبالمقابل وفي سبيل حماية حق سيادة فرنسا، فإننا نعترف بأنه عليهم تشكيل وفي كل مكان أقلية (الثلث كأدنى حد والربع كحد أقصى) ويجب على الهيئة الإنتخابية أن تشابه الفرنسية على الأقل في انتخاب المستشارين البلديين.

أما المستشارون العامون و الأعلى يمكن انتخابهم بالإقتراع الضيق.

هذا بخصوص العرض.

أما في ما يتعلق بالعدالة الإسلامية فإننا نطالب بالعودة إلى العدالة الميسرة الضافية والبسيطة لقضاتنا.

ولهؤلاء نطالب :

- تعويضات مناسبة تقيهم من الإغراءات وتسمح لهم بالمحافظة على مكانتهم.

- التقسيم إلى ثلاثة فئات تنطلق من ثلاثة إلى عشرة آلاف فرنك ومصاريف التمثيل المتناسبة مع حاجات المناطق.

- توظيف دقيق من جهة الأخلاق و المعرفة و التوقيف السريع عند حدوث أي خطأ.

أخيرا سلطة إنزال غرامات خفيفة في حالة الإخلال بالإحترام الذي يتمتعون به عند أداء مهامهم.فيما يتعلق بقضاة السلم فإنهم لا بد من أن يتكلمون العربية حسب رأينا وتشكيل سلكا من القضاة منفردا يبدؤون وينتهون في نفس الوظيفة. وكذلك الأمر بالنسبة لقضاة التحقيق لا بد أن تخصص لهم امتيازات بغرض شدهم إلى في وظائفهم الصعبة والكنودة.

يمكن لقضاة السلم أن يجمعوا بين وظائفهم ووظائف التحقيق وبالنسبة لهذه الحالة أو غيرها لكن من الضروري أن تكون لهم التجربة اللازمة والقدرة، ومعرفة اللغة العربية، وقبل توليهم هذه المهام لا بد أن يتلقوا تكوينا لسنتين أو ثلاثة سنوات.

بالنسبة لقضاة المسائل الجنائية فإننا نطالب بإلغاء المحلفين، إننا نثق ثقة كاملة في المحاكم الفرنسية . نود هنا تعزيز المحكمة الجنائية بمحلفين من الأهالي ولو على سبيل الإستثارة، في هذه الحالة لا بد على المحلفين أن يحسنوا الفرنسية قراءة وكتابة.

إن إلغاء قانون الأهالي يفرض نفسه، إلا إذا تطلب الإحتفاظ به، ضمانات، كعدم التعسف لأنه عامل استياء وتباعد وحقد الأجناس، لذلك لا بد من القضاء عليه نهائيا لكي لا يعيق التقارب والإندماج الطوعي والحر والتقدم.

بخصوص التعليم فإننا نريد مدرسة ابتدائية في كل قرية وتحت ظل كل نخلة إلا أنه للأسف فإن الذين يقاسموننا الدين لا يفكرون مثلنا ولذلك فإننا نتمنى أن تنشأ على مستوى كل بلدية لجنة من الكبار، حيث يشكل عدد الأهالي الأغلبية، في صورة مندوبين جهويين، يبحثون ويدرسون الوسائل الأكثر مناسبة لمساعدة مسيرة المدرسة، والتحاق العدد الأكبر من التلاميذ، وخلق المنافسة بينهم وحماسة الاولياء.

نقترح تشجيعات ومكافآت، نريد أن نرى ترقية تدريس اللغة العربية وإضافة دروس في الأدب العربي في المدارس، فيما يتعلق بالأشخاص الأكثر ذكاء - الذين تزيد اعدادهم على ما نعتقده - نريد أن يستفيدوا من منح دراسية في المدارس الثانوية والعالية دون مساومة.

أخيرا ومن أجل تتويج هذا الإنجاز يكون من المفضل أن تسند المواقع على الأرجح للذين يتكلمون ويكتبون الفرنسية، هذا الذي نقوله منذ زمن ولا نجسده أبدا ! بخصوص الخدمة العسكرية للأهالي نطالب بالمحافظة على ما هي عليه الأمور حاليا، نريد أن نفتح الأبواب للضباط للإرتقاء إلى المراتب الأعلى وأن تخصص وظائف للجنود المتقاعدين في بلدانهم.

بالنسبة للضباط فإن التقاعد يكفيهم. إن عمل تكوين الملكية الخاصة بالأهالي يبدو أنه شرع فيه لا لشئ إلا لتوفير أراضي إضافية ممكنة ومجانية للدولة. لقد آن الأوان لإصلاح هذه التجاوزات كما يجب العمل أيضا على أن الإحتجاجات التي تبرز

أثناء هذا العمل والتي لا تكون سببا في إنهيار المعنيين، وأن قيمة الشيئ المختلف حوله لا يتضاعف سعره الإجرائي وسعر ترجمة العقود...إلخ. هل بإمكاننا إيفاد إلى عين المكان قاضي المحكمة مع قاضي السلم كمساعد له لحل النزاعات في عين المكان.

هل بإمكاننا أن نقرر أن الأراضي التي على الشيوع يتم تقسيمها على أساس قسمة التعويض بدلا من قسمتها بين كل ذوي الحقوق، الأمر الذي يجزء الأرض إلى قطع بواحد على مئة أو واحد على ألف من الآر، وتتطلب مخططات وسندات...الخ حيث يزيد ثمنها على ثمن الأرض.

بخصوص الضرائب فإن الموضوع يتطلب إصلاحا أيضا يجب إعذار مقسطي الضرائب بغرض أداء عملهم على أحسن وجه، وأن يأخذوا في اعتبارهم الملاحظات التي يبديها المتصرف والجماعة والمعنيين.

إذا قل المحصول على الحد المتوسط فيجب أن تعفى من الضريبة.

وكذلك بالنسبة للقطعان الكبيرة التي لا يمكن أن تخضع للضريبة إلا عند السنة الثالثة من عمرها أما القطعان الصغيرة فعند بلوغ السنة.

كل الذين لا يملكون أكثر من رأس واحد من القطعان الكبيرة وأكثر من عشرة رؤوس من القطعان الصغيرة يتم إعفاءهم من الضرائب. إن أي شخص من الأهالي يدفع الضريبة على الملكية غير المبنية، يجب إعفاءه من الضريبة على الملكية المبنية.

لقد أنهكنا الإستنزاف ونحن نرجو أن نقيم صناديق للقرض بنسب معقولة تكلف بها إدارة الجماعة، وأن هذه الصناديق لا يمكن أن تكون إلا سببا للرفاه وتقدم خدمات جليلة.

وننتهي هنا مع الإحتجاج الشديد ضد فكرة المسؤولية الجماعية. إنه من المستحيل لامة عادلة كفرنسا تجعل من شعب بأكمله متضامنا مع الأشرار. لا بد أن نراقب بدقة العناصر الفاسدة ونطاردهم ونجهز عليهم، سنصفق بأيدينا إن لم نكن أول من سيساعد على ذلك.

أما أن يجعل منا المسؤولون الضامنون لهم، فهذا لن يكون، هذه هي أيها السادة تقريبا كل تمنياتنا ولنا أمل كبير في أن تجد الأذان الصاغية.

إن ثقتنا في الله كاملة وراسخة. الذي جعل منا رعاياكم وأبناءكم وأن مصائرنا بأيديكم، لماذا وضعنا تحت رعايتكم وحمايتكم إن لم يكن لتجديد شعبنا ونقله إلى طريق الحضارة والتقدم الذين التي عاشهما مدة طويلة وبتفوق .

هذه هي قناعتنا وهذه هي رغبتنا الكبيرة وهذا هو أملنا.

مستقبل الإسلام

مسألة دبلوماسية واستعمارية

1901، الجزء الثاني عشر

من ضمن الديانات المعاصرة فإن الإسلام الذي ينادي بالرسول العربي هو الدين الذي يجهله الكثير وأضيف بكل إرادة، أنه الدين الذي لا تعرفونه، فالقليل من الأشخاص الذين تجشموا عناء الإقتراب منه ودراسته ومحاولة معرفة أعماقه.

والنادر الذين توصلوا إلى تكوين فكرة تقريبية، و إبداء أحكام حوله مستقاة من جهات أخرى تغمرها النزوات والإرادة القبلية.

وكذلك هل لنا أن نصفق كثيرا للمعاينة التي قمتم بها حتى تنتهي إلى ايضاح المسألة بصورة جلية، فعشرون سنة من الدراسة الدؤوبة بالكاد تكفي، ولكن هل تتوصل إلى تقديمها أمام العلماء أو الرأي العام.

لقد استجاب لندائكم عدة أخصائيين بارزين، لا يسعنا إلا أن نأخذ من كفاءتهم ولطفهم، وأنا شخصيا لا أقدم عرضا عاما للمسألة، وأقل من ذلك لا أقدم حلا، إن هذه الصفحات القليلة لا بد أن ينظر لها على أنها حديثا عائليا أو رأي مسلم، و هذا الرأي هو الآتي :

إن مستقبل الإسلام يقوم على مبادئ أربعة !

1- قيمته الجوهرية

2- قيمة أتباعه

3- سياسات الدول الإسلامية

4- مساعدة العالم المتحضر

ما هي القيمة الجوهرية للإسلام كدين وكأخلاق وكشريعة ؟

ما هي قيمة الإسلام من الناحية السياسية والإجتماعية ؟ هل هو مبدأ حضاري؟

- إنه من الصعب لمسلم أن يطرح هذه الأسئلة وأن يجبر على الإجابة عليها، إننا نملك فكرة سامية جدا حول ديننا، نجد فيه العديد من عناصر القناعة الحميمية، إننا جد مقتنعون بسموه وعلوه، فقلوبنا مرتبطة به وبثقة ويقين، حيث يبدو لنا أحيانا أنه من المهانة لما نرى تشكيكا لواقعه، نحن مقتنعون به وأن عقولنا تنسجم وضمائرنا للإدلاء بجماله وصحته.

فالتاريخ لم يعلن عن توقفه ! فقرون من الأمجاد والأنوار، وتفتح جلي لم تبلغه شعوب وديانات أخرى، إنها حضارة عظيمة جعلت آثارها ونفوذها يستمر، أليس ذلك دليلا لإسكات الد قد والإعفاء من طرح السؤال مجددا.

لا أريد هنا أن أقد م حوصلة ضافية مهما كانت، حول الفقه الإسلامي فأنا لا أملك الكفاءة اللازمة لذلك ولعل كلماتي لا تفي بالغرض من ناحية صحة الأمر واستقامته، لكن لما أضع نفسي في موقع الرؤية العامة أقول أن عبادتنا التي جددت دين إبراهيم وواصلت دين موسى وعيسى هي همزة الوصل وجوهر الديانتين التاليتين. فبين الأوامر التشريعية للأول والتعاليم الأكثر أخلاقية للثاني، يكون قد أقام وضعا وسطيا بين الإثنين وذلك بربط ملكوت السماء بالأرض، وجعل الحياة المثالية في الواحد

شرط لسعادة الآخر في المجموع، إن الناتج واحد متكامل عالمي وبسيط خلق في مستوى الإنسان ومتناسب مع ملكاته، وأيضا بإعطاء ارتياح نفسي وعقلي، يجمع في توازن تام بين الشدة والتسامح وبين الرحمة والعدل وبين الحق والواجب، وهذا مثال على ذلك؟ العين بالعين والسن بالسن كما جاء في الموسوية.

إن الذي يصفعك على خدك الأيمن صعر له خدك الأيسر كما قال المسيح.

من إعتدى عليكم فاعتدوا عليه كما جاء في القرآن.

إن الدعوة إلى العفو وضعت إلى جانب الحق في العقاب ولا نضحي بالعدل بصورة مطلقة، فعلى الإنسان أن يختار فإن مال إلى العفو كان له الجزاء.

إننا نستغل المفارقة من حيث أن الموسوية لا يمكن إلا أن تعاقب والمسيحية لا يمكن إلا أن تعفو وأن العدالة المدنية ذاتها لا تجد الإجراء المناسب، فالمشرع المسلم يجمع ويحتفظ بالمبدأين في نفس الوقت.

ومع هذا كله فالإحترام المطلق لكل الديانات السابقة، وحب فياض للأنبياء الاخرين وتسامح كبير للضعف البشري والإهتمام الدائم بأن الإنسان خير **"لا إكراه في الدين"** كما جاء في القرآن **"يسروا ولا تعسروا"** كما جاء في الحديث "جئت لأبين الطريق المستقيم" كما كان يردد الرسول لكل مستمعيه. لقد سارع الجميع إلى هذا" السبيل" هذا الدين لا يظلم فيه أحد.

بخصوص الظلم ليس هناك مسلم متنور يشعر بضيق الريبة والشك فلا عقله ولا ضميره أو قلبه يعرف صدمة لأوامر غير مبررة أو غير إنسانية فكلما يفكر ويعمق

التفكير فهو يعبر عن رضاه النفسي وارتياحه، فبفضل الإجراءات الحكيمة فإن الإنسان غير مطالب بعفة منافية للطبيعة، ولا لأحادية الزواج المستحيلة، مع العلم انه ليس هناك فوق الأرض أحادي الزوج فحسب. إن المسلم الذي يعزل عن المرأة فإن لم تكن هذه هي الزوجة أو القريبة فإنه يقع في المحظور أما بخصوص المرأة المسلمة التي تعيش في مجتمع فريد من جنسها ستبقى فتاة طاهرة وزوجة مسؤولة و أم مبجلة باستمرار. في الأخير وعندما تتزوج فإنها تتحرر جملة وتفصيلا فإذا ارادت بيع أو اكتساب أو تجربة أو تسيير ثروتها الشخصية، دون مساعدة أو إذن من ألآب أو الزوج، فكأُم تعود لها تربية الأبناء الصغار، والأصول من الأم، وعند عدم وجودهم، لها أن تتوجه إلى الأصول من ام الزوج.

إن المرأة سواء كانت متزوجة أو مطلقة بإمكانها أن تتزوج دون رضا أي كان أما بخصوص الطلاق فإن حقوقها متساوية للرجل.

في هذه الظروف فإنه من العجب أن الطبائع والروابط العائلية التي تخلى عنها المتحضرون، لا زال المسلمون يحتفظون بها، هل يستلزم التدليل أكثر و ذلك بالكشف عن البؤس المعنوي لغير المؤمنين وبحثهم الدائم على قيمة لم يبلغوها أبدا، والفراغ الذي تعرفه طروحاتهم الفلسفية الأكثر متانة، والمجهول الذي يميز مفاهيمهم العقلانية التي تم إعدادها بإحكام.

في سياق فكري آخر، فإنه من الضروري تبيان ان الصراع الطبقي الذي يمزق العالم المتحضر لا تعرفه البلاد الإسلامية، وأن تعاون رأس المال والعمل قد تم حله منذ ثلاثة عشر قرنا بواسطة أحكام المشرع المسلم : فالقرض بفائدة محظور.

هل يمكن أن نتصور أن الثورة الخصبة والمباركة التي تدور في أوروبا يوم يضطر الرأسمال ليس إلى إقراض المال للعامل ولكن مشاركته في الأرباح والخسائر، وألا يستغله، لكن يشاركه، هل لنا أن نمجد الطريقة التي توصل فيها الرسول العربي إلى تحرير العبيد وتحقيق العدالة التامة وهذه الأخوة بين المسلمين وبين الجيران، نعم بين الجيران هذه الكلمة التي تبقى دائما في اوروبا كلمة مبتذلة و أن هذا البر الذي يخصص للفقير جزءا منه يعد حقا فعليا من أموال الأغنياء، و أن الترفع المطلق للشريعة الإسلامية وما يفرقها كثيرا عن هذا القانون المشتق من القانون الروماني، الذي لا يمكن له أن يكون نزيها لأنه أعد من قبل الغني ضد الفقير ومن قبل النبلاء ضد العامة.

لقد قلت أنني لاأريد أن أقدم عرضا عاما ولكنني ها أنذا أغامر، إني أتوقف لأنه لا مجال للشك لدى العقول المتنورة والنزيهة.

من وجهة النظرة الدينية، الأخلاقية والتشريعية وفي نفس الوقت من حيث العلاقة السياسية والإجتماعية، فإن الإسلام مبدأ حضاري أساسا ويتطلب القليل القليل لوضع بعض من مذاهبه في المستوى الأعلى ضمن المذاهب المعاصرة بينما نرى الأفكار المعاصرة بدورها تستقي منه بعض التعاليم النافعة.

إذا انتقلنا من الإسلام إلى المسلمين فإننا نلاحظ أن هذه الظاهرة الغريبة عن دين ظهر في الصحراء، وجاء به رسول أمي تستقبله كل الأجناس في كل الأوساط والبيئات. فالزنجي البدائي المتخلف ينسجم مع ذلك الدين، وكذلك الفارسي الآري

الذي تهذّب، والبربري الساكن المدينة والذي تجاوب مثل العربي الشاعر والرحال وكذلك سكان جاوا والصيني والإنجليزي، نعم الإنجليزي الفاتر والدقيق، وكذلك، التركي المفكر والحازم أليست هذه معجزة ؟

وهذا رغم التراخي الذي يميز المسلمين تجاه كل ديانة ورفضهم دون حيرة وتغييرمعتقدهم وهدفه.

إن هذا الدين المستقل والنزيه يساعد الجنس البشري كله لأنه لا يتطلب رهبانية تغيره كلما أرادت أوتفسره لصالحها، إنه يحتفظ حاضرا ومستقبلا بصفائه الأصلي وقيمه. على هذا الأساس فإن الوجدان الذي يرى منه يتعلق به بكل قوة و لا ينقص عنه.

فبمجرد الدخول في هذا الدين فإن المسلم لا يرى ولا يستمع إلى شيء آخر. إن كل الأمال المختلفة التي تعتمل داخله تذوب وتتوحد! « لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله» إنها خلاصة كل علم كل حكمة وكل جمال. فأمام هذه الحقيقة اللامتناهية تزول كل الحقائق الصغيرة بمثل لمس عصا الرسول، فتسقط كل الالهة الحجرية منذ قرون طويلة في الكعبة.

إن المثل الأعلى يزول، فما هو المثل الأعلى هذا ؟ إنها اسطورة، عائق، موجة من العطش للشيئ الذي لا نعرفه أو الذي لا نملكه. لكن لما نمتلك الحقيقة لما نجد في القلب وفي قرار الضمير فإن الغيوم تتجلى مثل الظلمات أمام النور.

إن المثل الأعلى هو السراب الذي لا يمكن مسكه لهروبه أما الحقيقة فهي الواقع.

والحقيقة الإسلامية هي كما هي، حلت في كل شيئ.

لما نرتوي من نبع الحليب والعسل فما هو الذوق الذي نجده في شراب الأفسنتين؟

أحيانا إزاء هذا الإكتشاف فالمسلم الجديد يبقى مذهولا كالمنهك، كما استطعنا أن نلاحظ عند البعض نوعا من التوقف عن الحركة، صورة من الذهول للأحاسيس، فالنوابض القديمة المهشمة لا بد أن تعوض بنوابض كبيرة وجديدة التي لا بد أن يتعود عليها.

إن الذي يميز المسلم في النهاية هو شيئ من الميول إلى الإكتفاء بالرداءة، ألا يتطلع إلى الأعلى ولا إلى الأبعد، يفضل الهدوء عن الحركة، السكون عن الضجيج، المراتب المتوسطة عن المراتب اللامعة المحاطة بالهموم.

فلا فيلسوف ولا أحد يمكنه أن يميز تعاليم المسيح وزهده في أمور هذا العالم إن ذلك عامل طبيعي للقناعات الهائلة والإيمان المطلق.

إن الأسفار لا تغريه أبدا إلا إذا أرادها مع عائلته ورفقة أوروبيين. فحرية المسلك ولغة هؤلاء تجعله وتصدم تحفظه العادي ويستحي منها أهله فيخلص من ذلك بصورة مبكرة ولا يتغرب بتاتا.

إن الشجاعة أمام الموت والإستهانة بالخطر، هي مزايا إسلامية، فهناك شعوب دون تماسك كالصينيين يتحولون إلى رجال بواسل بمجرد دخولهم الإسلام، وكذلك

الأمر بالنسبة للضيافة وبمقاومة العياء والجوع والعطش فقد جاء في حديث الرسول «إخشوشنوا فإن الحضارة لا تدوم» الذي يميز المجتمع الإسلامي اليوم هو جهله العميق، ليس فقط للفنون والعلوم المعاصرة ولكن لأشياء أخرى كثيرة عن دينه فبإستثناء بعض الممارسات الخارجية وبعض المعتقدات الأساسية فالعبادة تحولت إلى كتلة من الأخطاء والأحكام المسبقة والخرافات.

وعليه فكل وافد من الخارج يمكث مصدر ريبة دون تبرير ، وتحريم دون تفكير، أو مجادلة حتى أن بزنطا لم تنكرها.

من المؤكد أننا لا نقبل بعيون مغلقة كل ما تسربه لنا الحضارة، فالكثير من عطاياها الأقل رغبة تترك جانبا، لكن هناك عددا كبيرا منها بالإمكان استعارتها دون خطورة ولفائدتنا التامة.

فكل مجال العلوم الدقيقة وجزء كبير من التنظيم الداخلي والسياسي، ونظام الإشغال العمومية والتعليم، وكل ما يتعلق بالتجارة والزراعة والصناعة بإمكاننا اعتماده دون كبير تغيير. لا شيئ في العقيدة يعارض ذلك بل على العكس فإنها تحض عليه ولا تحرمه لقد جاء في الحديث «أنتم أدرى بشئون دنياكم» الضرورات تبيح المحظورات".

إذا دخل المسلم في هذا السراط فإن رفعته لا تعرف الإستطالة ولا الصعوبة.

- إن التعب بسبب الجهود المضنية جعل الحياة الإسلامية تتجه إلى الإعياء والفتور لكنها لا تموت ولا تندثر. لقد انهارت روما رغم عظمتها وانطفأت أثينا رغم

حضارتها وممالك كسرى والفراعنة والأشوريين والبابليين بادت دون أن تترك أثارا إنهم وثنيون بينما الشعوب التي تدين بدين منزل لا تموت أبدا وذلك بشاهدة اليهود.

ماذا يهم انهيار الممالك الإسلامية واستعباد سكانها وتحطيم مكة ؟ فبالرغم من ذلك استمر الرجل ذلك المسلم. إنهم ثلاثمائة مليون وعددهم يزيد دون توقف!

إن النقطة الأضعف في الظاهرة الإسلامية تكمن في تشتت مجال الخلافة إلى دويلات صغيرة. إن هذا التشتت سببه جملة من العوامل أساسها هو نزاهة الفاتحين الأوائل دعاة وليس دبلوماسيين، فلننظر أولا إلى أسر النفوس قبل الممالك زد على ذلك أن قناعتنا في الرابطة الإسلامية تقاوم كل إحساس بالعزلة، فعقبة بن نافع وموسى بن نصير وطارق بن زياد لم يفكروا أبدا في حراسة العلاقات ما بين الدولة الأم وفتوحاتهم البعيدة.

في الأخير إن تعاليم القرآن تعارض كل تصنيف للمسلم. فمهما يكن وطنه ومهما يكن أصله في أي مكان يوجد فيه فإن للمسلم مساوي لغيره من المسلمين وأخ لهم. من الأسف أن نفرض عليه شروط خاصة لكونه يقيم في الأرض غير الأرض العربية.

ليس هنلك أي محاذير ضد الناس الذين لا يدينون بالإسلام ما داموا يدفعون الجزية أو ضريبة على رأس المال فلا خوف عليهم ولا نتدخل في عبادتهم، و نعتبر رجال دينهم متصرفين وقضاة طبيعيين لجالياتهم. ولهم اليد الطولى على أتباعهم ولا يتبعون إلا رجالهم الذي يختارونهم.

فتحت سلطة هذا النظام الواثق أساسا والسمح، عاش إلى يومنا هذا، عدد من الطوائف الكاثوليكية واليهودية والإغريقية والأرمينية الذين ها لهم في الأتراك عدم بعد النظر ووفائهم الزائد.

دون شك فإن"الرعية" لا تكرم ولا تحظى بأي اعتبار لكنها تتمتع بحرية واسعة وفي بعض مجالات الإدارة، مثل الحرب يمكن لها أن تتطلع إلى أعلى مسؤوليات الدولة.

ففي المغرب وحتى في الزمن الغابر لأباطرة المرينيين نرى أن اليهود يتولون شرف الوزارة ولا يتأخرون في قهر المؤمنين. أما بخصوص العبيد حتى وإن يتم عتقهم فقد تبوؤوا أعلى المراتب في الوظائف الفخرية!

وهذا لم يحدث أبدا في الدول المسيحية حيث أن الأجنبي لا يطمح في شيئ حتى في يومنا هذا إلا إذا تجنس.

إن سياسة ملوك المسلمين لم تكن أكثر تنويرا أو أكثر تبصيرا في علاقاتهم فيما بينهم، بكل ثقة إلى حد الحذر تجاه أفرادهم، ويتطرف إلى حد الإستبداد تجاه إخوانهم في الدين، فالغيرة والتنافس كانتا هي الأساس تماما مثل المساجين اليوم ومع هذا الفرق فإن السلاطين كانوا في حرب، وشعوبهم مثل دعاة الدولية في أيامنا هذه يواصلون العيش في أخوة على الأقل. كما أن الإحساس بالجنسيات لا وجود له لدى أتباع محمد. وبقدر ضئيل عند الأتراك و الفرس.

وعلى مر الزمن فإن هذا التنافس والحروب التي تقوم بينهم، تتسبب في توقيف كل ازدهار، وتزرع عدم النظام، فالعمل كان صعبا والجهد يفوق طاقة البشر، وككل إفراط يتطلب تكفيرا. إن العياء الذي أصاب كل مسلم يلي الجهد والضعف بعد القوة.

وبنفس السبب ألم ينتج الافراط نفس المفعول لدى الأوربي، لما نرى الإبادة التي تسبب فيها إنفكاك الأسرة، وانحلال الأخلاق، والسكر، والمالتوسية، والتمايل والإرهاق والفوضى والحب الشديد للمال واللهو المفرط والملذات اللامتناهية والحرية حد الإباحة، تدفعنا إلى التساؤل عن الأكثر مرض بين الإثنين وهل كانت الظاهرة الإسلامية تشكل ملاذا بالنسبة له وفرغا لإنقاذه. ومن يعلم إذا أن المسلم بإمكانه المقاومة وهل له مثل غيره هذا السند الذي لا يعرف الإنفصام والذي لا يقهر، ألا وهو الإيمان.

لكن ما غفل عنه الحذر وبعد النظر في الدول الإسلامية، فإن فطرة الحياة لم تتخلف في تحقيق ذلك، فإزاء الشراهة المتزايدة، والتطلع الدائم للعالم المتحضر فإن الإسلام نهض من غفوته وتفتحت عيناه وبدأ يعاين مدى أخطائه وخطورة أوضاعه.

إن النظر يبحث لدى الشعوب والأيادي تمتد والقلوب تدق في تلاحم : فكلما ضربت التعاسة أرض من أراضي الإسلام شعرت بها باقي الأراضي.

إن الشعور بالتضامن لدى الملوك والحكام تطور، والتنازلات التي لم نتخيلها يوما ظهرت، وأن السدود التي لم نكن نتصور إجتيازها أصبحت في متناول الجميع وأن إصلاحات أجريت، وتفاهم عاطفي حل محل البغضاء السابقة. فبدون شك هناك عمل كبير ينتظر الإنجاز، لكن تعد هذه خطوة جبارة المتمثلة في معرفة الخطر والإقتناع بضرورة معالجته.

أما اوربا وفي ضلالها لا ترى ذلك التغيير إلا بمنظار أسود وتجكم عليه أنه ذو طبيعة تحد من أطماعها، وعليه تسعى لعرقلته وتزرع الفتن وتحول دون نهضة حتمية. إلا أن مساعيها الهدامة لن تجد المؤمل الذي تجده وأنه تحت ضربات المسيحية ينهض الإسلام.

إن النظرة الغالبة للعالم المتحضر اتجاه الإسلام هو العدوان، فبالنسبة للمسيحيين واليهود فإن الإسلام أخ خطير ومبغوض، وأن زواله هو الأمر الوحيد الذي يوفر لهم الراحة والسلام، بالنسبة للمفكرين المستقلين فإن عيبه أنه دين يقوم على الوحي وعلى ما وراء الطبيعة، هناك أمرين يدفعان الحكمة السليمة والتي تعيب جذريا أفكاره وبرنامجه بالنسبة للجميع، فإن ذلك يعد خليطا غير منسجم من التعاليم العبثية العامة أو بربرية تحدث أحيانا الفرحة واحيانا أخرى تلهم الجحود والفزع.

فهل يدافع المسلم على أهله ودينه ووطنه، أما الوطنية فليست هي التي تقوده ولكن الشراسة.

هل يبدو باسلا أو بطلا ؟ إنه متعصب.

هل يستسلم عندما ينهزم؟ إنه قدري.

هل هؤلاء الكهنة يغنون صلوات ؟ إن أصواتهم تشبه العواء.

هل يرقصون؟ إنهم يمارسون الدوران. فالموسيقى عبارة على أصوات مزعجة، إن زوجته أمة، بؤرة للإنحراف وعائلته حريم، وحضارته نقلا ونبيه دجال.

أما في الطلاق فلا نقول شيئا منذ أن اعتمدته اوروبا ولكن ماذا نقول قبل هذا التاريخ ؟ ما هو الموقف ؟ وهكذا كل ما يتعلق بالإسلام وبصفة مطلقة قد ضرب بالنبذ والقبح بانتظام. وأثيرت حوله السخرية أو تم تحقيره دون معرفته. هل هناك من لم يتجرأ على تنقية الكتلة الهائلة من الأخطاء والأحكام المسبقة إلا العدوان الدائم والأعمى الذي تم تكريسه على كاهل الإسلام.

في هذه الظروف كيف نحتار إذا لم يجد المسلم لدى المتحضر إلا تقديرات تصدمه وتجرحه، أو تثيره فينزوي في سكون مستهان أو منفر، مع المعاملة في الأساس لكل حقد بحقد وكل كراهية بكراهية. اخيرا إن عموم الأوروبيين ليسوا أعداء بالولادة للإسلام.

هنالك رجال لهم من العلم الكثير ومن النزاهة الفائقة، والشجاعة النادرة، نهضوا ليدينون تلك الأحكام التي تعود أسبابها دائما إلى الجهل فدحضوا تلك الترهات الخرقاء أو الخادعة وبينوا صنيعها للمغتابين.

إذا ما استمعوا إلى نصائحهم الحكيمة بدلا من معاداة الإسلام وان يمدون إليه الأيادي ويساعدوا على النهوض. من بينهم شخص جريئ يقر بكل ما يصدر من قوة كامنة، وذات جودة، يكون نصيرا لتحالف واتحاد محكم لفائدة التقدم.

إلا أن عدد هذه النخبة الواعية ضيقا وأصواتهم معزولة، وضعيفة أيضا، وبدون صدى فلا يمكن أن نحطم في يوم ما أنجز في قرن من الزمان.

إلى أصحاب الر ى هؤلاء، ، إلى المتبصرين، فإننا نود الذين يدعون فتح وغزو المقاطعات، وتجريد شعب واستغلال منطقة دون التفكير في أن الذي يكتسب بالعنف يؤخذ بالعنف أيضا.

اتبعت الدول المسيحية وبارتياح ظاهرٍ تيارا من الرأي محبذا للرؤى الخفية لكل امة تمتلك جيشا قويا، أو بحرية نشطة جدا وتم إعداد حرب صليبية ضد المسلمين.

وراء أقل الدوافع ولأتفه الأسباب سواء مجتمعين أو متفرقين تدافعوا على الأملاك واقتسموا أرواح الناس وحازوا ثرواتهم وأفسدوا مؤسساتهم وأحدثوا البلبلة في مجتمعاتهم دون أن يتخلوا على تحميلهم كل الجرائم وكل الخطايا، وذلك تحت غطاء قداسة تحرير الشعوب وإدخال الإصلاحات ونشر الحضارة.

يا أيتها المسيحية المهيمنة والبشعة فإذا كان المجدي محاربة الضعفاء فإنه أقل مجدا أيضا في إرهاقهم بالشتائم وإذلالهم ! ولنستمع للتالي!

ألقي القبض على احد الإنكشاريين في حملة، ولما بدأت عملية تعذيبه فكل فرد من القبيلة غرز في جسمه سكينة وإزاء سكوته بدأ احد الرجال يشتمه !

ايها الرجل ! قال أحد الأتراك الأشداء أضرب لكن لا تشتم.

بهذه العبارات أريد أن أختم.

إن الإسلام بإمكانه إتباع الانطلاق الحضاري في مختلف درجاته باستثناء العقيدة، والأخلاق والعائلة.

إن المسلم الذي تزعم الحضارة وأدخلها إلى أوربا، بإمكانه أن يتبوأ مكانته إذا سمحت بذلك الظروف، إلى ذلك الحين، فإنه يملك مقاومة لا محدودة تسمح له أن ينتظر الدهر كله، دون دفاع ودون موت.

إن الدول الإسلامية متخلفة ومنقسمة إلا أن نشر التعليم سيجعلها تحتل مكانتها في العالم وأن العدوان الذي تضمره المسيحية يدفعها إلى الوحدة.

إن العالم المتحضر من واجبه أن يهتم بالإسلام، بالعمل الصالح، لأنه إذا لم يدخل الحضارة معه فسوف يدخل الحضارة رغما عنه وضده.

كيف يمكن أن نصل إلى تفاهم مقبول و ضروري ؟

يكون ذلك بعملية مضاعفة : أن نعرف الإسلام بوجهه الحقيقي للعالم المسيحي وأن نعرف الحضارة بوجهها الحقيقي للعالم الإسلامي.

إن تأثير رجل العلم في العالم المتحضر يكون راجحا وهو كذلك في العالم الإسلامي بشرط أساسي أن يكون العالم مسلما حقيقيا.

لدينا مسلمون طيبون بإمكانهم الأخذ والفهم والإستيعاب، فلندخل في علاقة معهم ونسهل لهم الإتصال ببعضهم وتطور علاقاتهم بالعلماء المسيحيين.

أن يكون الحوار بينهم صريحا دون خلفيات، ودون الأراء القبلية خاصة دون خلفيات لأن جماهير المسلمين لما تشعر ان وراء هؤلاء العلماء يد اجنبية أو أي خلفية، فإنها تدخل في ريبة ولا تتبعهم مهما كانت مكانتهم ومهما كان وقارهم.

إنه بالقناعة احتضن المسلمون الإسلام، وبالقناعة أيضا يمكن لهم أن يحتضنوا الحضارة.

سيعرف القرن العشرين حلا للمشكلة بواسطة كارثة أو بواسطة السلم، كارثة إذا استمرت المسيحية في عدوانها ضد الإسلام و السلم إذا امتدت إليه يدها لتساعده على النهوض.

أما الآن فكلمة لى الإسلا، في إفريقيا.

مهما كانت المظاهر فإن الإسلام الإفريقي لا يختلف عنه في باقي القارات، ليس هناك إسلام إفريقي وآخر أسيوي وأوروبي، إن هناك دين عالمي واحد : هو الإسلام فالإختلاف يكمن في الظروف الإثنية والسياسية وحدها.

فمن الناحية الإثنية فإن إفريقيا يسكنها البربر والزنوج أما العرب فهم أقلية مثل الأوروبيين.

نحن نعرف ارتباط البربري بأرضه وطبائعه وعاداته العريقة، إنه غير ميال للتنوع ، مثله مثل العربي الرحال، أغلب الضن هو أكثر منه في جعل الدين لمصالحه لكن هذا لا يستمر إلى درجة التضحية به.

أما الزنجي فهو كائن بدائي، هو صفحة عذراء يمكننا أن نكتب فوقها دون حاجة إلى محوها، حقل مناسب للزراعة، وبالنسبة للإسلام الذي لا يحمل غموضا ولا صعوبات حيث أن مبادئ المساواة مطلقة.

فبمجرد النطق بالإيمان فإن الزنجي في مرتبة مساوية للإبيض وهو أخوه، إنه من جراء التعسف وخرق النصوص الأساسية للقانون أن يقوم المسلم الأبيض باستعباد الرقيق إن استعباد أي شخص أو أي قوم لا يمكن أن يصدر في مرسوم إلا بعد حرب شرعية قادها زعيم تمت توليته بنظام ووفق قرار حازم.

عند التأكد من ذلك فإن وضعيته يحددها القانون وليس هناك فظاظة.

إنها شروط المنتصر، مع التخفيف بعدم تركها للتعسف، وأن المعني بالأمر أن ينعتق بالشراء أو بعملية إحسان من صاحبه.إن تحرير عبد تعد من الخصال الحميدة عند الله.

لقد أشرنا سابقا إلى أن العبد وفي ظروفه يمكن أن يتبوأ أعلى المراتب نبلا شريطة أن يدخل في الإسلام. ففي المغرب الأقصى فإن أغلب ولاة المناطق والعمداء والوزراء من العبيد.

إن قابلية المسلم الإفريقي سواء كان بربريا أو زنجيا للحضارة لا تتطلب برهانا، إنه متخلف لكنه ليس همجي.

لقد كان لتمبوكتو قديما مزدهرة، كما كان لتونس وفاس والقاهرة وطرابلس. فإن كان الحاضر حزينا فلا شيئ يعترض مستقبل الإفريقي و أن يكون شبيها بماضيه.

هذا الأمر يرجع إلى الأمم الأوربية التي تحتفظ بين يديها بمصائرهم ! إن بريطانيا وفرنسا، تطمح الأولى في منطقة تمتد من رأس الرجاء الصالح إلى القاهرة و الإخرى من الجزائر إلى الكونغو، الواحدة في شرق إفريقيا والأخرى غربها.

من جانب إنجلترا فإننا لا ننتظر شيئا، فالإنجليزي أناني في العمق، ولا يخفي ذلك على الأقل، فلا يهمه أن نفكر في ذلك أو نبوح به. فهو يفكر في نفسه ويقوم بما يعتقد أنه جيد، يأخذ ما يعجبه ويزيح كل ما يزعجه وهذا بكل برودة وهو صادر دون تسرع ودون خطب واهية، ولا يهمه أن نصرخ او ننتقد أو نعلق، فلا أحد يهتم بما نقوله.

فهل تحول إلي شخص رقيق العواطف، تأكدوا أنه يفعل ذلك بحساب. لا يمكن أن نعرف حتى أصبح أكثر نفاقا، أعندما يغتاض بصوت مرتفع للوحشية التي تنزل على البلغاريين أم عندما يلتزم الصمت المناسب بخصوص مآسي إيرلندا.

أما الفرنسي فيختلف عن الإنجليزي، لقد كان ولزمن طويل بطل الضعفاء، فارس الحرية. إلا أنه منذ نصف قرن، بدت حكومته أقرب إلى السياسة الموضوعية للمصالحة المستمرة، لقد بقي في عقول الناس بقايا من نزاهة وشعور بآلام الغير وعادات ليبيرالية صنفها عن طيب خاطر بعض المثقفين بالسذاجة.

بالرغم أن عددا من هذه العقول الموضوعية يتزايد يوما بعد يوم وأن عدد السذج يتناقص في الحجم، ففي فرنسا يستمر طويلا هذا الجو الليبيرالي الظريف والذي يعطيها سمة مختلفة، بدون شك، فهذا الإحساس مبهم وافلاطوني. إلا أن الضعفاء راضون في غياب الأحسن.

بخصوص المسلمين في الجزائر التي تعتبر مفتاح إفريقيا، فإنه يكفي للحفاظ على آمالهم وتمكينهم من الإيمان بأيام جميلة.

لسوء الحظ ففرنسي المستعمرات يختلف كثيرا عن فرنسي فرنسا. بالنسبة له فإن السياسة الأحسن هي تلك التي تفضل مصالحه، حتى على حساب الجار، ومعارضة هذه السياسة تبدو له جورا غبيا كبيرا، وظلما صارخا، ولما كان بواسطة بطاقة الإنتخاب يسير مصيره ومصير جاره فإن رأي الوطن الأم لا يزيد على قيمة إستشارية مزعجة.

فإذا لم يكن في الجزائر إلا المستعمر الذي يفضل مصالحه حتى ولو تطلبت الحذر- عند إنعدام العدل- شيئ من الدبلوماسية. إلا أنه بين الشخص من الأهالي والفرنسي يتموقع رجل السياسة، فليس لهذا الأخير من الموقف الأكثر نفعا أو

الأكثر مواتاة من تعظيم خصال موكليهم والإطناب في عيوب غيرهم، وأن يظهروا حاجات البعض وينكرون مصالح الآخرين.

المصيبة أن الإستعمار يغمض عينيه – وبداخله فرصة – وأن فرنسا تعاني من هدفها الإفريقي، فعندما نحلم بضم نصف القارة والزج بالأهالي في البؤس – حتى بصفة شرعية – ليست بسياسة أن تحمله كل الجرائم فهذا لا يعد تبريرا ولا يعد حلا.

إننا لسنا من الذين يعتقدون أنه ليس من الصعب أن نجد أحسن. لكن لا بد من الإسراع إذا ما أردنا أن كل مصالحة لا يمكن تحقيقها.

سيرى القرن العشرين بالضرورة سياسة فرنسية إسلامية أكثر إنسجاما، أو وضعا كارثيا. على هذا الأساس، فلنغير قليلا خاتمتي للإسلام عامة. فأقول حول الإسلام الإفريقي الغربي ؟ إذا لم يتحضر عن طريق فرنسا ولفرنسا فسوف يتحضر رغما عنها و ضدها.

امحمد بن رحال

سي أمحمد بن رحال
ومسألة تعليم الجزائريين

3 وثائق (1887 - 1892 - 1921)

تقدم الوثائق الثلاثة، حسب رأينا ثلاثة اهتمامات لتحليل ردود أفعال الجزائريين للتحطيم الجزئي للنظام التربوي القديم وزرع الجهاز المدرسي الإستعماري في نهاية القرن 19 وبداية القرن 20.

1. على مستوى الوثائق، فإن شهادة سي امحمد بن رحال[1] تمثل أداة جد مهمة لإدراجها في الملف الخاص بتعليم الجزائريين إبان الفترة الإستعمارية. إنه أحد المعاصرين القلائل في زرع الجهاز التعليمي الإستعماري والذي ترك وجهة نظر منجزة. زيادة على ذلك فشهادة ونضال سي أمحمد بن رحال دار أثناء فترة طويلة نسبيا، من 1886[2] إلى 1925[3] أي أربعون سنة. إنه إذا شاهد على آخر هجوم يقوم به الإستعمار بأتجاه البنايات الفوقية للمجتمع الجزائري، تلك التي تدور في حقل التعليم. إنه في هذا الحقل الذي يمثل الجبهة الأخيرة لمقاومة زرع الإستعماروالجبهة الأولى التي تظهر فيها الأشكال الجديدة للصراع التي ستكون للحركة الوطنية التي جندت سي أمحمد بن رحال.

في عام 1887 أثناء نشر سي أمحمد بن رحال "دراسته حول تطبيق التعليم العام في البلاد العربية"، تطبيق مرسوم 1883[4] الذي لم يقطع سنة وجوده الأولى. فالجهاز الجديديشكل موضوع صراع المعمرين من أجل تحويله إلى جهاز مدرسي

استعماري، بمعنى الحد من انتشاره ومحدودية تطابق محتواه مع مصالح الاستعمار.

وبالنسبة لأمحمد بن رحال وبعض المثقفين مزدوجي اللغة. يمثل مرسوم 1983 أولا الأمل في تعميم التعليم، وبالتالي حلا محتملا للأزمة الثقافية التي عرفتها الجزائر على إثر سقوط النظام التربوي والديني السابق للاستعمار.

وفي ماي 1892 في الوقت الذي قرأ أمام لجنة التحقيق لمجلس الأمة التي كانت في زيارة للجزائر «مشروع اعادة تنظيم التعليم العالي في الجزائر»[(5)].

فمسار تحطيم البنية الثقافية وخاصة الجهاز المدرسي أدى إلى نتائج تدخل جزئيا في تناقض مع مصالح المستعمر (ندوة الاطارات اللازمة لبعث الجهاز القضائي والديني المحتكر من طرف الاستعمار، زيادة بعثات الجزائريين نحو جامعات العالم الاسلامي)

وسيستعد سي أمحمد بن رحال على هذه التناقضات لاقتراح اعادة تنشيط وتنظيم المدارس.

وفي 17 جوان 1921 قدم مداخلة في جلسة علنية أمام الهيئات المالية حول تعليم اللغة العربية.

وقد اعتبرها ممثلي السلطة الاستعمارية بمثابة عدوان غير مقبول. وتهور جنوني من قبل زملائه الجزائريين.

و أكد في الواقع استحالة ورفض زرع الثقافة البديلة. اضافة إلى ذلك طالب بانشاء مؤسسة مدرسية مستقلة عن السلطة الأستعمارية يستطيع أمحمد بن رحال تقديم لمثل هذه المطالب، إنه لم يعتمد على التناقضات الداخلية للنظام الاستعماري فحسب. وانما على الحساسية السياسية والثقافية التي تؤثر على جزء من الشعب الجزائري. في نهاية هذا «الربيع الجزائري» عام 1921.

2. و تعد هذه النصوص الثلاثة تبيانا جيدا لما ·مكن تسم ته «المقاومة – الحوار» التي تحاول أن تطرح بشكل غير استعدائي، ولكنه نقدي لمسألة التحطيم، واعادة بناء المجتمع الجزائري تحت الهيمنة الاستعمارية.

ومع الكتابات المرتبطة بظروف مختلفة نجد في هذه النصوص الثلاثة العناصر المكونة لهذا المسعى المعقد والغامض والانتقالي(6).

– القبول الصريح الذي هو أحيانا حنيني، وأحيانا أخرى حماسي للواقع الاستعماري.

من هذا القبول المبدئي يستخلص نتائج عملية تعيد النظر في الواقع الاستعماري.

– لكن هذا التشكيك في النظام الاستعماري لم تكن باسم مجتمع مستعمر تتناقض مصالحه مع المصالح الاستعمارية. بل وضعت باسم المصالح الاستعمارية، وبدعوى عقلنة هذه الأخيرة.

- إن هذا المسعى «المغالط للعين» لا يكون ممكنا سوى لأن الاستعمار يعتبر مسارا متناقضا.

يولد وجهات نظر مختلفة جزئيا. ويتمثل أساس مسعى بن رحال في استعمال هذه المتناقضات باختيار تموضعه كل مرة مستخدما وجهة نظر استعمارية تخدم موضوعيا الدفاع عن المصالح المباشرة للمجتمع المستعمر. كذلك الملاحظة انطلاقا من مصالح الفئة الاجتماعية التي ينتمي اليها.

إن وجهة النظر التي تؤسس لمسعى بن رحال هي إذن جد ضمنية. ولا تبدو في كل الحالات في تأكيدات الخضوع الصريحة فقط، بينما تظهر أكثر في الالتواءات التي خضع لها الخطاب الاستعماري بأصنافه والتي تسمح بالقول ضمن إطارها أشياء لا يمكن تصورها البتة من وجهة نظره.

3. وبصورة أعم فإن أهمية هذه النصوص تكمن في أنها تعيد النظر في المخططات، ثنائية الفرع التي تعتبر أساس أغلب تحليلات الواقع الاستعماري (رفض/اندماج، عربية/فرنسية، تقليد/عصرنة) والتي تخفي تعقيد مختلف المظاهر التي يأخذها مطلب مناهضة الاستعمار في أوقات محددة.

الهوامش

1) ولد بندرومة يوم 16 ماي 1855، وتوفي عام 1928، إن سي أمحمد بن رحال، بالدور الذي لعبه كناطق في أعوام 1886 حتى 1925 يطغى على الساحة السياسية والثقافية لهذه الفترة حتى وصول الأمير خالد. ومن أجل بيبليوغرافيا دقيقة فعلى القارئ أن يرجع إلى :

- جغلول عبد القادر : سي أمحمد بن رحال (1857 - 1928) :

المقاومة - الحوار لأحد أعيان ندرومة

الجزائر أحداث عدد 699 - 8 - 14 مارس 1979.

- غراند غيوم جيلبر : ندرومة، تطور مدينة لعيد إيج بريل 1976.

2) وبالفعل ففي عام 1886 كتب سي أحمد بن رحال ملاحظاته حول تعليم الأهالي (نص لم ينشر بعد)

3) سجلت سنة 1925 فعلا نهاية الحياة العامة الفعلية لسي أمحمد بن رحال حيث إنهزم في الإنتخابات المجالس المالية.

4) يمدد مرسوم 1883 مبدئيا للجزائر، لمفهوم الجمهوري للمرسوم المدرسة كمرفق عام بالمجانية التامة، الالزامية واللائكية التعليم « التي انتصرت في فرنسا عام 1881 ».

5) إن المخطوط لهذه الوثيقة أرسلته السيدة رحال سارة. فلها هنا تشكراتنا.

6) من أجل تحليل لهذا المسعى فإن للقارئ الرجوع إلى جغلول عبد القادر : أمحمد بن رحال ومسألة تعليم الجزائريين (1886 - 1925) مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية، الجزائر، رقم 4 1977.

دراسة حول تطبيق التعليم العام في الدول العربية

I - نشرة شركة الجغرافيا وعلم الآثار

لناحية وهران،

1887 - الجزء السابع

في اليوم الذي أقامت فرنسا رايتها على الساحل الافريقي، التزمت بتكريس تحضير وتقدم الشعب الذي غزته، وخوفا من التناقض كان لزاما عليها الوفاء بالتزامها مهما تكن الصعوبات التي تواجهها في انجاز هذه المهمة النبيلة.

ولبلوغ هذا الهدف هل يوجد من وسيلة أقوى وأقدر من نشر التعليم ؟

ان الشخص المتعلم لسلامة عقله ولكونه غير سيء، هل يمكن أن يكون بالضرورة متحضرا أو متقدما ؟

لا يمكن أن نزعم بالأساس أن العربية سيئة. والتاريخ يشهد على كمالها في الفنون كما في العلوم، وعليه فهي قادرة على تلقي التعليم والاستفادة منه، ولا أقترح هنا دراسة معمقة حول تعليم الأهالي. كونه موضوعا جد واسعا ومعقدا بالنسبة لي. ولكن تقديم بعض الملاحظات والنقد يمكن أن يستفيد منها ذوي الاختصاص.

وإذا أردنا أن نتجنب خيبة الأمل، وإذا أردنا أن لا نفشل عمل بهذا المستوى. فمن غير المقبول الأخذ في الحسبان بهذين النقطتين الأساسيتين وهي معرفة :

- أن الحالة الراهنة للعربية في الجزائر يمكن أن تعلم، أقول تعلم لأنها لا تطلبها.

بل أنها معدة مع بعض الاستثناءات النادرة لانطوائها على نوع من الحيلة الراجعة لبساطتها، قصد سلبها جنسيتها ودينها.

ولا يجب أن ننسب إليها وأن نريد منها (الارتباط بالأخلاق وتقاليد أسلافها له محاسنة، إنه دائما شعور الأكثر احتراما)

لكن الاكتفاء بالأفادة منه ومعالجته على هذا النحو فحسب، تعبير بقدر ما هو مبتذل فهو صحيح، معاملتها كالطفل الذي نريد أن نعطيه دواء منفرا.

وفي المحل الثاني يجب الدخول بهذه الحقيق، أن نأخذ شبابا عربا في «دوارهم» ووضعهم لعدة سنوات على مقاعد مؤسسة مشيدة بتكاليف باهضة. و تتوفر عن التجهيز والتأطير المكلف ثم إعادة إرسالهم إلى قبيلاتهم.

دون تحديد هدف لهم ودفعهم لتحقيقه. وعدم تمكينهم من تطبيق ما تعلموه. مما قد ينتج متخلفين لا أكثر. وكم رأيت من متخلفين في الثانويات من هؤلاء الشباب المتشبعين بالذكاء والمتطلعين للمستقبل. والتقيت بهم بعد ذلك على الرصيف، الأكثر من ذلك أن التعليم أثار عواطفهم وفتح شهيتهم و ضاعف من حاجاتهم !

ولم يبق لهم سوى رعي الماشية في جبالهم و من المؤكد أنني لا أدعي أن الحكومة يجب أن تعوض أو تشغل كل الأهالي الذين علمتهم. ولكن اليس من الواجب بعد هذا العناد والجهد في تربية أخلاقهم وتطوير ذكائهم للمحافظة على الأقل على أسمائهم والانشغال بمصيرهم، ومساعدتهم بمنحهم الأولوية في الشغل المتوفر ؟

ماذا يمكن أن نقول لأحد الملاك بعد أن إجتهد في بناء منزل ثم تركه بمجرد الانتهاء من شأنه للإهمال ليسكن مكانا آخر ؟

هذان المبدءان مطروحان، لنتولى دراسة بعض المسائل المفصلة ذات الأهمية أيضا.

I- المؤسسات التعليمية

في تقديرنا ينبغي أن توضع المدراس في الوسط القبلي، لتكون في متناول التلاميذ والأولياء حتى يتسنى لهؤلاء الأباء مراقبة كل ما يجرى في هذه المؤسسات، والتعليم المقدم فيها يجب أن يكون مجانيا تماما ومشيدة ومسيرة وفق ما امكن من إقتصاد ممكن، مدرسة أهلية في خيمة أو «قربي» ببعض لوحات الكتابة، وبسبورة سوداء وبعض الحصائر كتجهيز، ليس فيه ما يخيفنا.

قد يوجد أيضا في كل قبيلة مدرسة أو أكثر مسيرة من قبل معلمين بسطاء قد يدرسون فيها العناصر الأولى للقراءة والكتابة والحساب ليس أكثر.

مدرسة عربية فرنسية مفتوحة في مقر البلدية قد تجمع الأكثر استحقاقا من بين تلاميذ المدارس الأهلية وقد تعطيم التعليم الابتدائي بأتم معنى الكلمة.

و قد يكون على رأسها مدير فرنسي ونواب ومعلمين أهليين لمساعدته إضافة إلى ذلك قد يكون المدير مكلفا بتفتيش المدارس الأهلية للبلدية والذي يجب أن يزورها مرة في الشهر على الأقل.

II - المستخدمين

يجب أن يكون المستخدمون موضوع اهتمام خاص من قبل السلطات قد يكونوا من العرب فقط بإستثناء مديرو المدارس العربية الفرنسية الذين قد يكونون فرنسيين.

هؤلاء يجب أن يكونوا من ذوي الخبرة ومخلصين لمهنتهم كي ينسجموا مع الأهالي، الذين يناط بهم التنوير وتحقيق الإزدهار.

الذين قد يجب عليهم (شرط أساسي. من المدهش أننا لا نوليه الأهمية الكافية) كتابة العربية أو على الأقل تكلمها. المعلمين أونواب الأهالي ملزمون ما امكن بالعمل في مدارس البلاد. فالوضعية التي تمنحها لهم بسيطة كما كانت، قد تكون تؤدي لاثارة منافسة نزيهة في أوساط زملائهم. وقد يكون ضروري أن مكافأة المعلمين الفرنسيين تكون متناسبة مع قدراتهم ولمجموعهم، وعلى الأقل البحث في الأهالي على «القياد» حراس الغابات سكرتير خوجة، عون حراسة وغيرهم وحتى الشواش أو مرسلي الصكوك في مكاتب المصالح الادارية. لماذا لا تخصهم بالتفصيل وحتى (القول على سبيل الحصر للأهالي الذين يتكلمون ويكتبون باللغة الفرنسية ؟)

العرب دون غيرهم في العالم أكثر حساسية للشرف، نبين لهم أن الوسيلة الوحيدة لبلوغ هذا الهدف هو التعليم اليس كذلك، ودفعهم إلى المدارس ؟

أليس إطلاع الحكومة على أن الكلام والكتابة بالفرنسية انجاز يستحق التقدير ؟

أليس أفضل تقديم هدف ومستقبل للذين سئموا من آفاق العلم المظنى وبدون مقابل ؟

إضافة لذلك فإن مواضيع النخبة التي نعترف لها بأوضاع أفضل يجب أن نستفيد من بعثات في المعاهد والثانويات والمدارس المتخصصة ...الخ، وبتخرجها يتم توظيفها حسب مؤهلاتها.

وستجد فرنسا من هؤلاء المساعدون الفوائد !

III- الرقابة والادارة العليا :

إننا نريد أن يكون على مستوى كل مدرسة «عربية فرنسية» لجنة مدرسية ويقبل فيها العرب المتفوقون من المنطقة على نطاق واسع.

وهدف هذه اللجنة :

1- تشجيع الأولياء لارسال ابنائهم إلى المدرسة وارتيادها بشكل عادي.

2- اقتراح الوسائل المناسبة للوصول إلى هذه النتيجة. اضافة إلى الاصلاحات والتحسينات الواجب إدخالها في التعليم.

3- و في النهاية إعداد قائمة للتلاميذ الأكثر استحقاقا حسب مؤهلاتهم وأذواقهم وإستحقاقاتهم.

ترسل هذه القائمة للحكومة من طرف الأكاديمية التي يعتمد عليها في توجيه الاختيار للتعيين في الوظائف التي ذكرناها.

كما نريد أن تكون على مستوى عميد أكاديمية الجزائر لجنة متخصصة تهتم حصريا بتعليم الأهالي، وتركز كل المعلومات والتقارير الصادرة عن اللجان المدرسية وغيرها وتقترح التدابير التي تراها مناسبة.

الخاتمة

هذه هي الملاحظات التي اقترضاها لدراسة مسألة حاسمة تخص مستقبل الجزائر. قد نجد البعض مبالغ فيه ومجال انتقاد، مثل نظام المدارس الأهلية المسيرة من طرف معلمين بسطاء في الخيمة أو «القربي».

ومهما يكن فإنه حينما نتجرد من الأحكام المسبقة التي تمليها عادة عدم رؤية بعض الأشياء إلا تحت بعض المظاهر المحددة، فإننا سنجد أنه من خلال هذا الوقت العملي جوهريا، حيث الوسائل الاقتصادية مطلوبة ومحبذة، هذا الاقتراح يكون ساذجا كما يبدو. بالأموال التي تتطلبها أقل مؤسسة مدرسية، قد نستطيع تشييد عشرة من مدارسنا ونحافظ عليها، نفس العدد من السنوات.

إذا كانت بعض هذه الاقتراحات تحتاج وجود حجرات وفحص دقيق فإنه توجد مقترحات أخرى لا تحتاج إلا الإجراءات الإدارية البسيطة لتطبيقها.

فهل تستطيع أن تجلب الاهتمام وتجد لدى السلطات المخولة العناية التي تستحقها الإرادة الحسنة والإخلاص الحقيقي الذي أملى هذه الاقتراحات !

سنكون سعداء لمساهمتنا من أجل أي جزء من الأعمال الجليلة التي قد تنتج عن ذلك.

ندرومة 15 مارس 1887

امحمد بن رحال

II- مشروع إعادة تنظيم التعليم العالي في الجزائر

وثيقة لم تنشر، ندرومة، ماي 1892

I- التقرير الجيد يعتمد على تعليم الأهالي ويعني بالخصوص التعليم الابتدائي الفرنسي لتكوين مجموعة متكاملة يتعين بالضرورة وجود عنصرين متكاملين، التعليم الثانوي والعالي الفرنسي والتعليم الاسلامي.

II- التعليم الثانوي العالي الفرنسي جد منظم في الجزائر ولا يستدعي الاهتمام به. ويجب أن تنصرف جهود النخبة والكفاءات العليا والارادات الحسنة إلى التعليم الابتدائي لدفعه ودعمه.

III- لا يوجد تعليم اسلامي في الجزائر إلا بصورة بدائية في الزوايا وفي حالة مشروع في مدارس تلمسان والجزائر وقسنطينة.

IV- ورغم كونه منظم جيدا فإنه يستجيب لضرورتين : العدل، والعبادة إلا أنه من الناحية السياسية لا يقدم خدمة مستحبة.

V- يجب أن نعترف أن الشباب المكون في المدارس الفرنسية ينظر بدونية للمسلم، وأن تقديره والأعجاب به وثقته تستمد بالنسبة للطالب من الجامعات الأرثودوكسية.

VI- إن مدارسنا غير كافية من زاويتين، من ناحية طاقة استيعابها للتلاميذ ومستوى التعليم الذي تقدمه، اضافة إلى ذلك يجب على المسلمين ترك ابنائهم

للتعليم الأحادي الفرنسي الاجباري أو تدرسيهم في الخارج (المغرب - تونس - مصر).

VII- في هذه الظروف، ما سيحدث، إن إخواننا في الدين مقتنعون أن فرنسا تريد إزالة معتقداتهم وتعويضها بمعتقدات أخرى.

VIII - من جهة أخرى فإن الطلبة المكونون في المغرب أو في غيره متمدينين ومتحضرين كما هو شأن كل رجال العلم مهما كان الدين الذي يتبعونه هم أكثر تعلما من علمائنا، استقروا في العشائر (وقد بينت الإحصائيات التي اجريت في مقاطعة وهران عددا معتبرا) أنهم يحوزون كل السلطة المعنوية، ويجب على المسلمين أن يعثروا عليهم ويستشيروهم لأن لديهم فقط نجد بعض بقايا التعليم العالي الاسلامي، وأن تقديرنا للعلماء يجعلنا نسعى في طلبهم.

إن طلبتنا غير قادرين على الدخول في صراع معهم بل أكثر وهنا في دعم القضية الفرنسية.

بهذه الطريقة فإننا نفقد كل تأثير، فطلبتنا أصبحوا يثيرون السخرية.

فموضفوننا نحن أنفسهم (قضاة، العدول، الأيمة، ورجال الافتاء) لا يستمع اليهم، وإلى جانبهم من يوصفهم بالجهل، فالبرغم من إخلاصهم فإنهم يتنازلون عن الصراع.

وعكس ذلك فإذا أعطيتموهم تعليما إسلاميا متماسكا في مدارسكم مع تكملة ذلك بتعليم فرنسي كافي، فإذا علمتوهم قوانيننا، وتاريخنا وأشعارنا الجميلة، فإن

مواطنينا سيستمعون لهم ولا كبير عناء في إسكات الطلبة الذين تكونوا بمناهج أقل إتقانا من طلبتكم.

إنهم سيكسبون المصداقية الضائعة.

يرى مواطنونا أن الأشخاص الذين يفقهون لغتنا والأدب العربي أكثر مما يتصوروا، وأنهم يفقهون الفرنسية أيضا، فإنهم يتوصلون حتما أن تعلم لغتكم لا يعد خرابا لمعتقداتهم ولا ينتهي إلى التقليل من قيمهم الثقافية والأخلاقية، إنهم اليوم على أتم استعداد لتصديق ذلك. إنهم يعتبرون الفرنسية كتكملة ضرورية لتعليم جدي وعالي حقا.

في يومنا هذا ستجدون من أجل مساعدتكم لإقامة مدارس، الحماس الكامل لمواجهة الخشية وأحيانا الارادة السيئة.

مشروع

I- إعادة تنظيم المدارس الثلاثة (الجزائر تلمسان قسنطينة)

II- تحديد مدة الدراسة بثلاث سنوات

III – مضاعفة عدد التلاميذ

IV- زيادة عدد الأساتذة، والعمداء من بين العلماء المرغوب فيهم والذين يتمتعون بسلطة عليا، وإرسالهم للخارج إذا لزم الأمر.

V – مرافقتهم بأساتذة فرنسيين متمرسين يتكلمون ويكتبون العربية. لتعليم الفرنسية والعلوم الأولية.

VI- ينظم في نهاية السنوات الثالثة امتحان للالتحاق بمدرسة الجزائر أين يستكمل الطلبة دراستهم. حيث يتابعون ولمدة سنتين بعض دروس المدارس العيا، الآداب والعلوم بما في ذلك دروس أولية في القانون الفرنسي.

VII – ينظم إمتحان عند الانتهاء من السنة الخامسة وفق البرنامج الذي تم اعداده، ولتحقيق النجاح والاصلاح يستحسن أن يقدم جزء كبير من العلوم

الاسلامية، ويكون هذا الامتحان جد صعب. وفي مقرر الفرنسية نضع المواد التي نراها مناسبة.

VIII- يتوج هذا الامتحان بشهادة تكون لها قيمة البكالوريا. بحيث تفتح المسارات المهنية للشباب الذين يثبتون مؤهلات علمية واضحة.

الخاتمة

لقد ذكر لي التأثير الكبير لدى الأشخاص المتخرجين من المدارس العليا بفرنسا، ومثال ذلك المدرسة العليا للأساتذة.

هذا التأثير موجود من قبل لدينا من خلال الطلبة الذين تلقوا تكوينا في بعض الجامعات (القرويين بفاس، الأزهر بمصر والزيتونة بتونس).

يتم تكوينهم في الجامعة الاسلامية بالجزائر التي نقترح إنشائها وتنظيمها.

إن طلبتنا بدخولهم وسط زملائهم من نفس الدين سيتمتعون بسمعة خاصة واجبة الأداء كليا على فرنسا.

قدوتهم ستجعل المسلمين يرسلون أبناءهم إلى المدارس الفرنسية عندما يرون رجالا علماء متمسكين بدينهم لا يخشون تلقي مقدار من المعرفة للغة الفرنسية.

ندرومة ماي 1892

III – تدخل أمام اللجان المالية حول تعلم اللغة العربية

اللجان المالية

أيها السادة،

إن تدريس العربية على المستوى الابتدائي مهمل وإن شرع فيه بصفة عامة كتعليم عال ومتوسط من طرف الادارة المختصة. لا يقتصر هذا التدريس ولا يتواجد في جدول توقيت بعض المدارس الأساسية للأهالي ولو لنصف ساعة في اليوم كما أنه لا يقتصر على أن هذا التدريس لا يتواجد في برنامج شهادة التعليم الابتدائي وأنه لا يحسب له حساب.

ذلك أن تعليم العربية يفتقد المعلم المؤهل وعليه، فإن هذا التعليم لا يصاغ إلا للتذكار وللحفاظ على المظاهر.

فهل يمكن أن يقبل أن تدرس العربية للعرب من طرف معلمين فرنسيين أو حتى أهالي لم يتعلموا إلا سطحيا في مدرسة المعلمين، حيث لا تدرس لهم هذه اللغة إلا أربع ساعات في الأسبوع وذلك خلال أشهر معدودات ؟

فخارج هذه المحاولة اليائسة، لا تدرس العربية الابتدائية رسميا في أي مكان ومع ذلك فإن هذه اللغة هي اللغة الأصلية لبعض ملايين السكان المسلمين الذين هم بصدد تعلم الفرنسية التي لن تعوض أبدا التعبير المكتسب عن طريق الأمهات.

هل يمكن، في هذه الظروف، أن نتصور شعبا دون لغة يعبر بها عن أفكاره ويتفهم بواسطتها أفكار الآخرين وينمي عن طريقها فكره ويترجم من خلالها أحاسيسه ويطور بواسطتها أخلاقيته وأخيرا يعيش وينمو ؟

هذا غير معقول إلى حد بعيد كما أن الضرورة الملحة جدا لاستخدامي أداة للتثقيف الفكري والأخلاقي. تحمل المسلم الجزائري أمام عدم اكتراث السلطات العمومية، فإن هذا المسلم الجزائري ليس مصنوعا من ظلام الذي لم يكن ماضيه ظلمات، وعمل كعادته لما نحرمه من الضروري. لقد استمر وبواسطة موارده الضعيفة في تمويل التعليم الذي له مكانة في قلبه وبواسطة موارده الخاصة وذلك باقتصاد ما يمكن اقتصاده في ميزانيته الضعيفة، حتى أنه يحرم نفسه من الضروريات. يعمل الجزائر المسلم على الإبقاء على هذا التعليم كما كان الوثنيون يعملون على استمرار النار المقدسة. وهكذا، نرى أحيانا في الدواوير والقرى كما في الأماكن المظلمة للمدن الكبرى نرى هذه المستعمرات النشطة لخلايا حقيقية من الصبيان وهي تستغيز بلوحة تستعمل مقام الكراس وتتلقى تدريسا من لدن معلم مسن، جاثم على شبه حصيرة قديمة، أو شبه زربية، وهو يلقن مستمعيه المتيقظين، كيفية حفظ القرآن على ظهر قلب أو كيفية نطق الحروف الأبجدية العربية.

يا له من تعليم هزيل ! ويالها من وسائل ضعيفة ! وياله من منظر محزن ! ففي ملئ القرن العشرين وبينما يشيد للعلم قصورا فاخرة في كل المناطق وفي ذات

الوقت الذي تساهم فيه هبات الأمراء يوميا في تنمية تدريس العلوم ورفع مستوى هذا التدريس ليلتحق بمستوى التدريس بأوربا وبينما على مقربة منا أي في تونس والمغرب لازال الشعور الإسلامي مفهوما ومحترما ويعمل على تنميته، فإن النسيان بل المعاداة هي السائدة هنا بالجزائر.

آه ! هناك أحيانا عناية جيدة بهذه الخلايا الصبيانية أين يحفظ صغار المسلمين - ما يقوله البعض- آيات القرآن ويتغذون في ذات الوقت بكراهية الكافر وأخلاقه وحضارته. إنها آلاف الحجج الواهية، لغلق «نوادي التعصب» هذه أو على الأقل إضعافها بواسطة ساعات التدريس القليلة وضيق مساحة الأقسام التي تنعدم فيها شروط الصحة والإفتقاد للتراخيص وآلاف الصور الأخرى من المضايقات.

أيها السادة ! إنه بدلا من غلق هذه النوادي المعدية فكريا وأخلاقيا كما نسميها أحيانا، عوض غلقها بكل بساطة، لا يمكن أن تنشغلوا بتنظيفها وتحديثها وجعلها أعوانا وأصدقاءا لكم ؟

هل أن هذا القرآن ذات الصيت الذي ترون فيه شرا كبيرا، دون أن تكونوا قد اطلعتم عليه- هو حقا رجعي ومتأخر ولا أخلاقي كما كان يحلو للبعض قوله ؟

أتصور أنه في عهد لم تكن البربرية في هذا الجانب من البحر المتوسط، كان المسلم وقد تغذى من القرآن، يلقن للعالم مبادئ مثل : "لا إكراه في الدين ! احترام الوالدين والمسنين والمعتقد المعلن بما في ذلك احترام العدو الكافر! كل رسل الله

إخوة! الإحترام الصارم لقوانين الحرب. منع استخدام الأسلحة المسمومة ومنع قتل الجرحى والمرأة والكاهن وإن كانت بين أيديهم أسلحة. لا شرعية الحرب التي تشن على الكفاردون سبب ودون ترخيص من الأمام وعليه فإن المحارب الذي يخالف ذلك تعد تلك هذه الحرب لا شرعية ويموت و هو آثم !"

أيها السادة :

يمكن أن أكلمكم عن الاسلام وعن القرآن ساعات وأياما بأكملها لا لشيء إلا لأضعكم أمام أمور تعايشونها يوميا، دون أن تلقوا لها بالا، فأنتم مهتمون بأشياء أخرى!

اسمحوا لي أن استند إلى مثال يتعلق بالجهاد، فهو نموذجي، فالجهاد يعرف بأنه الحرب المقدسة. ولئن كان مرادفا بعض الشيء للحرب، فلا علاقة للجهاد من جهة أخرى بمفهوم القدا.ـة. فالجهاد يعني ببساطة المقاومة. وهناك جهادان أو مقاومتان. أولها، وهو الأكبر عند 'الله، هو جهاد النفس. وثانيتهما، الجهاد بالسلاح ويأتي في المرتبة الثانية، ولكن كيف يفهم هذا الجهاد الثاني ؟ لقد ذكرت لكم سابقا منع استعمال الأسلحة السامة، وقتل النساء والكهنة الذين أمسكوا وبأيديهم أسلحة.

ها هنا حقيقة، مادة نجد فيها الحضارة الغربية إمكانية الالتقاط أو التفكير، ولذا هناك رغبة منذ وقت في الاعتراف بأن الأتراك لا يسيئون معاملة أسرى الحرب.

ويحترمون النواب، ويقفون عند قوانين الحرب. نعم ! إنها قوانين إسلامية أساسا، والأتراك هم مسلمون ! وغير أن فائدتكم التي تكون محط قلق، أنتم معاشر الأوروبيين، تكمن في أن «كل حرب تكون ضد الكافر دون سبب ، ودون وسائل كافية وبدون إذن الإمام تؤدي بمن يقوم بها إلى دخول النار !». ذلكم هو المبدأ الأورثودكسي.

لقد كان الظن غالبا أن مصلحة الدولة التي تؤثر على الحكومات، هي لفت انتباه الإدارة الجزائرية لهذا المبدأ الأساسي من الشريعة الاسلامية وحثها على نشره بكل الوسائل التي تملكها في أوساط أفرادها المسلمين.

غير أن ما قامت به الدولة هو العكس. فقد حذفت من تعاليم الشريعة الاسلامية الجزء المتعلق بالجهاد وهكذا فإن الأمي من الأهالي، المعلم» (معلم القرآن). يجهل أنه يقوم بفعل غير مشروع فعل يدينه الدين بشدة !

هل أكون خاطئا إذا قلت أنكم تؤجلون استخفافا واحتياطا في غالب الأحيان أشياء يمكن أن تتساير مع هذه الأفكار وتؤهل أحسن مقاصدكم.

أعود إلى موضوعي، لقد أردتم قبول توسيع التعليم الفرنسي على الأهالي. وخصصتم له أموالا هامة، وإن كانت في حقيقة الأمر غير كافية، وجزء منها يستغل في مجالات غريبة عن التعليم ولكن مهما كانت هذه الأموال هامة ومهما كانت معتبرة فإنها لا يمكن أن تحقق إلا إذا تضاعفت مرات ومرات.

و بما أن تعليم الفرنسية في جوهره وفي الكيفية التي يجب أن يتم بها يتطلب أموالا طائلة ويقتضي تضحيات ثقيلة، فإننا جئنا نطلب منكم أن تضاعفوه بتعليم يعطى بالعربية ومن عرب. إن تعليم العربية هذا يكون أرخص ويقدم خدمات غير متوقعة.

ألا ينتابكم الأسف. أيها السادة، وأنتم ترون في الساحات العمومية وفي شوارع المدن، وفي محطات القطار، عصابات من الأطفال الأشقياء، ثيابهم رثة جياع ويأتونكم ليعرضوا خدماتهم عليكم أو يستجدونكم.

إن هؤلاء الأطفال، أيها السادة، هؤلاء الذين سيكونون في المستقبل من المتعودين على السجون. هم الذين لم يكن لهم الحظ أن يكونوا أمام معلم المدرسة الفرنسية ولا معلم الكتاتيب.

وباعتباز أنهم أطفال الشارع، فإنهم لا يعرفون إلا ما يتعلمون في الشارع، وأنتم تعرفون ماذا نتعلم في الشارع.

ولو أن هؤلاء الأطفال إن لم يتمكنوا من التعليم في المدارس الفرنسية، كان لهم معلم من الأهالي، معلم قرآن، وعلمهم أخلاق القرآن، هل تظنون أنهم سيقفون أمامكم بهذه الحالة المزرية.

ألا يكون معلم القرآن قد علمهم أن أول واجبات المسلم أن يؤدي صلاته وأن الصلاة لا تجوز إلا إذا يسبقها وضوء وماذا ستستفيد النظافة العمومية من مجرد القيام بهذا التطبيق الأول المستمر من الإيمان و المجازي في هذه الدنيا والآخرة.

يلي هذه النظافة الحسية بشكل طبيعي صفاء روحي : «لا تسرق، لا تقتل، لا تشهد شهادة الزور، احترم الكبير والوالدين وامرأة الآخر. اجتنب الخمر والأماكن المشبوهة لا تكذب، احترم ولي الأمر ولو كان كافرا.

أيها السادة، هل يمكن لأي فرد يتلقى هذا النوع من التعليم ويعتقد بأصله الديني، أن يكون فردا شريرا وكافرا.

انني أشهدكم، هل وجد من بين الجموع المحترمة من الرجال، الذين يؤمون المساجد كل يوم، فهل أن جيش الشر جندا سارقا وقاتلا، ومشعل حريق.

أعطوني إحصاء للمسلمين المتعلمين بالعربية الذين حكمت عليهم المحاكم ! لا يوجد و إن وجد فهو يعد على الأصابع.

إلى ما يعود هذا إن لم يكن إلى مبادئ الأخلاق القرآنية، التي كثيرا ما تنتقدونها للجهل بها، أو لتعمد تجاهلها.

من هو الأكثر احتراما، والأكثر احتراما للسلطة والأكثر احتراما لملكية الآخر والأكثر وفاء بالعهد من المسلم.

ذلك المسلم الحقيقي الذي يخشى الله ويؤمن برسوله.

هذه أشياء ترونها كل يوم وتقدمون بموجبها شهادات بعفوية، حتى تعتمدها وتستغلها السياسة الرشيدة، في هذه الأثناء ولست أدري بأي شعور ترفضون الإعلان عنه وكأن الاعتراف بذلك يكلفكم أغلى شيء عندكم.

بالمقابل فإنه من اللائق الا نكشف إلا ظهر العملة و لا يبرز إلا الأخطاء والعيوب لشرح الاهتمام فحسب أو تبرير اللامبالاة.

إذن، إسمحوا لي أن أعاتبكم بمحبة، إن هذا الموقف غير صائب، وإنه من مصلحتكم ومصلحتنا أن أتقدم لدعوتكم إلى تقدير واضح للمسألة التعليمية الموجهة للمسلمين وأن أجعلكم على بينة من الفوائد المادية والثقافية والأخلاقية إذا ما شجعتم ذلك بدلا من تحريمه أو ارباكه.

إنه أفضل وسيلة للحكم هذا الذي بين أيديكم، إن أحسنتم استعماله !

أولا، إن الأسلام لا يمارس السياسة.

ليس له كهنة، ويخضع للتعاليم الإلاهية وما دام الله هو خالق الكون كافة، ولا يمكنه أن يزيد إلا الخير لمخلوقاته، فإن كل من لا يريد الخير لمخلوقات الله هو عدو الله.

فالإنسان الذي هذه هي عقيدته أليس هو الإنسان المثالي، الإنسان الكامل إن كان الكمال من هذا الكون ؟

حقيقة، فإن المسلم هو إنسان مثل الآخرين ولكن مادام هذا الإنسان بتلبسه مؤمن، وما دام هذا المؤمن هو الألطف والأكثر مدنية والأفضل مطاوعة من الرجال، لماذا لا تشجع هذه الثقافة التي تفضل هذه التربية وتؤدي إلى أحسن النتائج وأنسبها؟ لماذا لا تمد يد محبة وكرم إلى الذي يكلف بنشرها، إلى ذلك "المعلم"

الكريم في حياته الخاصة وفي اتزانه الخارجي، الذي يقضي عمره في زرع العلم في رؤوس الجهل، يعيش من لا شيئ أو يكتفي بالقليل !

لماذا لا يمنح بعض الرفاهية "للقربي" الذي يدرس فيه، إلى هذا الأثاث البائس الذي يوجد فيه، إلى العتاد المدرسي البدائي الذي يحتاجه؟

إن إعانة سنوية لهذا المسلم، وبعض الحصائر لتلاميذه وسبورة، وبعض الخرائط الحائطية تستطيع أن تزين المكان وتنعش عشا فكريا ومعنويا حيث يمكن أن يكون لكل ذلك أثره البالغ على المستقبل. هل تمتنعون عن عمل كل ما نطلبه لتحقيقه هو مبلغ متواضع في حدود خمسة ملايين. لا أستطيع توقع الرفض منكم مهما كانت الأسباب التي يمكن أن يصبغ بها.

إن تمويل التعليم الإبتدائي الإسلامي معناه الإستثمار الأفضل والإستعمال الأمثل لأموال هي تحت هدفكم، وهو الضمان لكم في المستقبل.

من الإحتمالات الوخيمة للجهل والفساد الأخلاقي، وهو الإرتباط الوثيق بقلوب رعاياكم المسلمين بالرباط الأمتن والأقوى وبالحبل الأكثر حساسية.

ليس أحب إلى قلب المسلم من اللغة، التي يرضعها مع حليب أمه، ويقرأ بها القرآن الكريم ويستعملها في نجواه مع الله. إنكم تستطيعون فعل ذلك ويجب أن تفعلوه. فافعلوه، إنه صديق حميم الذي يقول لكم ذلك ويدعو له منذ أمد.

واسمحوا لي أن بذكري لشخصية حيث يستحسن ذكرها هنا.

قبل ثلاثين سنة حل بالجزائر الرجل العظيم "جول فيري" لقد جاء مع بعض أعضاء هذه اللجنة البرلمانية للـ 18 التي فعلت الكثير للجزائر، لدراسة قضية الجزائر والمسألة "الأنديجانية".

وكنت في باريس لأعرض أمام هذه اللجنة، وعدت إلى الجزائر حالما علمت بوصوله هنا ولما كانت أحد اهتماماتي الأساسية هو تعليم "الأنديجان" قرأت عليه مذكرة عن إعادة تنظيم المدارس.

ولم أنتهي من قراءتي حتى اندفع «جول فيري» لينزع من يدي الدفتر قائلا :

"فهمت ! في مشروعك أفكار لا يحق لحكومة تجاهلها. إني جاعل من مشروعك مشروعي، سأحتفظ به.»

في السنة الموالية أنشئت مدرسة الجزائر ولحقت بعد قليل مدرسة تلمسان ومدرسة قسنطينة.

فلو عايش "جول فيري" تعليم العربية، كما درسه في تفاصيله "إيميل كومب" في تقريره الهام إلى مجلس الشيوخ. لصار اليوم هذا التعليم منظما و ممولا، ولما كنا لنعاين هذه الأزمة الأخلاقية وهذه الاختلافات المؤسفة لمجتمع مؤهل لحظ أوفر وقد عرف أياما زاهرة.

لا يمكن أن يرفع شعب إلى حضارة أجنبية أحسن إلا عبر مراحل متتالية منطلقين مما هو موجود ومما تعود عليه.

إن ما تعود عليه المسلم هي مدارسه القرآنية حيث من عادته أن يأخذ مفاهيمه الأولى وتعليمه الأول.

إن مضاعفة المدارس الفرنسية أمر جيد بل جيد جدا، لكن إهمال المدارس العربية أمر لا يغتفرو فعل لا سياسي.

لذلك يتوجه إليكم اليوم زملائي المسلمون و أنا، ندعوكم لتصحيح هذا الخطأ وسد هذه الثغرة.

وقد التمسنا ذلك من الإدارة مرات عديدة فلم تستجيب إلا أنها تدخلت بغضب أو بأحاسيس عدائية.

إننا نعتمد عليكم في المساعدة على أن تدركوا الأهمية القصوى للقضية ولحثها على السير ولمدها بالعنصر الجوهري ألا وهو المال.

أيها السادة

أعتذر عما يمكن أن يكون قد بدر مني، وانا أتحدث عن الإسلام وعلو أخلاقه، منصفا إياه، فمهما كان يسيرا وفي أي شيئ مما يمكن أن يسيئ إلى أحاسيس البعض من الزملاء الذين ينتمون إلى ديانات أخرى.

فليست فكرتي كذلك ولن تكون كذلك، وقد قلتها وأقولها مرة أخرى: العقيدة الإسلامية تلزمنا باحترام متساو لكل الديانات المنزلة ولكل الرسل الذين نزلت عليهم واستثناء أحدهم يعني الإنشقاق عن الدين بل البدعة.

ولمن يريدون مني في هذه النقطة دليلا قويا على التزامي، أجيبهم بما يأتي:

عندما أريد إعادة قصر الأسقفية إلى الحبر الأعظم الذي يقوم بهذه المهمة السامية، كنت من الأوائل الذين رفعوا أيديهم بالموافقة. وعندما طلب منا بأمر من الحكومة، إنشاء أسقفيات جديدة كنت من بين الوفد العربي قد أبديت رأيا في كبير الاساقفة المستقبلي الذي كانت أقواله عن الإحسان المسيحي التي أدلى بها في صالح المساكين مؤثرة في قلوب كل المسلمين بمن فيهم أنا.

وليسمح لي هنا أن أجدد له من فوق هذا المنبر وافر عرفاننا وعميق تقديرنا.

إمضاء بن رحال

الفهرس

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

وحدة الرغاية، الجزائر

2007

Achevé d'Imprimer sur les Presses
ENAG, Réghaïa
- Algerie -

Bp. 75 Z.I. Réghaïa Tél. : 021 84 80 10/84 86 11

سلسلة
التراث

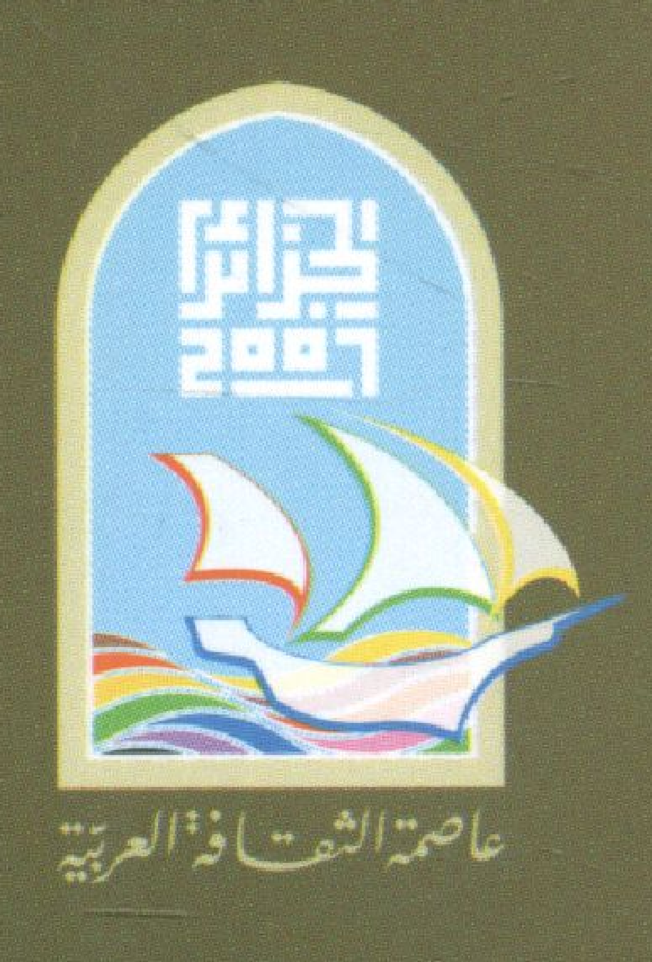
مستقبل الإسلام

وكتابات أخرى

إن القارئ اليوم قد يفاجئ بل قد يخذل لما يلاحظ أن محتوى المطالب التي قدمها سي أمحمد بن رحال، ذات مظاهر استرضائية بل تنم عن الخضوع وبدرجة أقل لما يعلم ان سي أمحمد بن رحال قد ارتجل فكرة الناطق باسم مجتمع لم ينهزم فحسب ، بل عندما خرج من صدمة الابادة البيولوجية التي لم تنتهي، و نهشته الدائرة الجهنمية للابادة الثقافية التي حولته إلى "بقايا أشخاص".

مقتطف من التصدير





ISBN: 9947-21-235-1